مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد:01.العـدد: 04. السنة: 2020 ص 79– 103
ISSN 2661-765x

الأسماء والتصورات من نظرية المعرفة إلى نظرية المعنى
نموذج الفلاسفة التجريبيين: جون لوك، دافيد هيوم وجون ستيوارت مل.

أ. عبد السلام خواخي*

جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

البريد الالكتروني: Salamkhouakhi1979@gmail.com

ملخص البحث

اللغة نسق من الرموز، والأصوات، والعلامات، المعبرة عن الفكر؛ إذ تشكل الأسماء أحد أهم مكوناتها التركيبية، تلعب دورا محوريا في تكوين جمل ذات معنى، وتعبر عن تصورات وأفكار يكونها الذهن انطلاقا من تعميم وتجريد الإدراكات الحسية والانطباعات التي تتلقاها الحواس استجابة لمثيرات العالم الخارجي. الأسماء علامات تكشف قدرات الذهن التنظيمية والتصنيفية للأشياء، وهي نوعان: (1) عامة، تعبر عن مضمون فكري، وتحيل على مواضيع؛ (2) خاصة، تلصق اسما خاصا بموضوع واحد، تعيّنه في حضوره أو غيابه.

الكلمات المفاتيح: التجربة، التصورات، الانطباعات، السببية، الأسماء، المعنى، الإحالة...

Abstract:

Language is a system of symbols, sounds, and signs, expressive of thought. Names are one of their most important structural components, play a pivotal role in the formation of meaningful sentences, and reflect the perceptions and ideas formed by the mind where his practice of generalization and abstraction on the perceptions and impressions received in response to sensory stimuli from the outside world. Names are signs that reveal the mind's ability to organize and classify things, which are of two types: (1)

* المؤلف المرسل: أ. عبد السلام خواخي Salamkhouakhi1979@gmail.com

General, expressing meaning and referring to a subject; (2) Individual, attaching a special name to a single subject, which he designates in his presence or in his absence.

Keywords: experience, perceptions, impressions, causation, nouns, meaning, reference...

مقدمة.

تعد الأسماء – سواء كانت عامة أو فردية – من أبرز مكونات لغتنا، وهي موضوع بحث في مجالات عدة كاللسانيات، والمنطق، والدلاليات، والتداوليات. وتشكل العلاقة الجدلية التي تجمع بين الأسماء والتصورات الذهنية مشكلة حقيقية للفلاسفة عامة، والتجريبين خاصة، حيث توظف وتستعمل في مجالات عدة، فهي حاضرة في ممارساتنا اليومية، واستدلالنا المنطقي، وسلوكنا العقلاني، إذ تمكننا من إدراك العالم الطبيعي والاجتماعي، حيث تكشف العلاقات الترابطية بين الوقائع والأحداث، من تعاقب أو تزامن، تشابه أو اختلاف، هوية أو تناقض، ثبات أو تغير...إلخ.

لا شك أن اللغة نظام من الأصوات والرموز والعلامات التي تستعمل للتعبير عن الفكر والإفصاح عن المعاني التي تشكلها الذوات عن العالم، حيث تجمع وتربط بين معطيين لهما طبيعتين مختلفتين: الفكر، والواقع المادي. ترتبط بعلاقات معقدة مع التصورات والأفكار، من جهة، ومع العالم ووقائعه، من جهة أخرى. إذ بفضل اللغة تستطيع الذوات أن تعقلن العالم، وتنظم الوقائع والأحداث التي تتفاعل معها تجريبيا وتربط بينها في الزمان والمكان والسياق، إذ نميز بين حدث وأثر، أحدهما سابق والآخر لاحق، الأول يسمى بالسبب أو العلة والثاني يسمى النتيجة أو المعلول. لأن حدوث ظاهرة ما (واقعة) يدفع الذوات العاقلة إلى توقع ظواهر تعقبها أو تتزامن معها أو تغيب وتتخلف: فعندما نرى الثلج يسقط فنحن نتوقع تدني درجة الحرارة وتجمد الماء، واختفاء الشمس في السحاب وغيرها. كما أن النطق بجملة "الثلج يسقط" من طرف متكلم ما في سياق محدد يدفع المستمع إلى توقع نتائج ترتبط بالواقعة المعبر عنها حتى دون أن يرى سقوط الثلج، كما أن النطق

بنبرة خاصة بكلمة 'نار!' تدفع بالمستمعين الذين لا وجود لنار في مجالهم البصري الاستعداد للهروب، أي أن الأسماء مثيرات حسية تقوم مقام الوقائع وتؤدي وظيفتها التأثيرية، إذ تعين مواضيع الجمل أو القضايا أو تضيف صفات وخصائص لها، تسمح للمتكلمين باستحضار أشياء العالم رغم غيابها الفعلي، فكيف يمكن أن نفهم علاقة الكلمات(الأسماء) بمواضيعها؟ كيف تعمل وسائل التعبير اللغوي على تمثيل العلاقات السببية؟ وكيف يمكن فهم العلاقة السببية بين الكلمة (الاسم) والشيء (المسمى)؟ وهل للكلمات معاني ذهنية تشكل واسطة بينها وبين ما تحيل عليه أم أن الكلمات (الأسماء) تحيل على مواضيعها مباشرة؟

سأحاول في هذا المقال، اعتمادا على منهج تحليلي مقارن، إبراز العلاقات التي تجمع الكلمات (خصوصا الأسماء) والتصورات (الأفكار)، من جهة، وبينها وبين الأشياء، من جهة أخرى. مبينا الفرق بين الأسماء العامة – التي تسمي الأشياء المتشابهة الناتجة عن عمليتي التجريد والتعميم التي يقوم بها الذهن من خلال اشتغاله على الانطباعات والإدراكات الحسية – والأسماء الخاصة (أسماء الأعلام) التي تسمي مواضيع فردية، محاولا تتبع خيوط أطروحات أشهر ثلاثة فلاسفة ينتمون إلى التقليد التجريبي الإنجليزي: جون لوك، دافيد هيوم وجون ستيوارت مل.

لوك وعلاقة الترابط بين الكلمات والأفكار.

إذا كانت الفلسفة الديكارتية قد بنت المعرفة على الحدس الفطري البديهي، من جهة، وعلى الاستنتاج والاستنباط العقلي من جهة أخرى[1]، فإن فلسفة لوك رفضت فكرة حيازة الإنسان لأفكار

[1]– صرح ديكارت ذات مرة بالقول: إن "العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس". (ينظر: ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة وتقديم: محمود محمد الخضيري، كلية الآداب جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، 1984، ص 56). وذهب إلى أن الفكر فطري ويشتمل على مجموعة من الحدوس والحقائق البديهية التي لا يمكن الشك فيها. فالحدس "نور فطري إلهي وهب لذهن يقظ ومتفطن"، وعليه فإن الأفكار – من قبيل فكرة الكوجيطو 'أفكر، أنا موجود'، 'الكل أكبر من الجزء'، 'المثلث يعرف بثلاثة أضلاع'، 'مجموع عددين صحيحين طبيعيين هو عدد صحيح طبيعي' وغيرها من البديهيات الرياضية والمنطقية – هي حقائق بديهية تفرض نفسها على كل العقول ولا يمكن إنكارها وتبيان الخطأ فيها، لأنها من مصدر إلهي، والله هو ضامن حقيقتها، ولا يمكن لله المتصف بالكمال والإرادة المطلقة أن يضللنا، كما يؤكد على ذلك ديكارت، وهو يواجه أصحاب نزعة الشك المذهبي الذين ينكرون وجود الحقيقة على

قبلية فطرية، وأكدت أن الأفكار تجريد وتعميم للإدراكات الحسية المختلفة، فهي بناء نشيط من طرف الذات، ناتجة عن خبراتها وتجاربها الحسية مع الأشياء الطبيعية. 'فالطفل يولد وعقله صفحة بيضاء'[1]. يقول لوك: "لنفترض، في البداية، أن العقل عبارة عن 'صفحة بيضاء' خال من جميع

الإطلاق. فالشك الديكارتي شك منهجي يروم البحث عن الحقائق الأولية البديهية التي يتم الارتكاز عليها لبناء حقائق أخرى أكثر تعقيدا اعتماد على: الاستنتاج من خلال عملية التحليل والتقسيم للمشكلات إلى أجزاء يسهل حلها؛ ثم التركيب حيث يتم ترتيب الحلول الجزئية والانتقال من البسيط إلى المعقد قصد الحصول على الحل الكلي للمشكلة؛ وفي الأخير مراجعة الحلول المتوصل إليها والشك فيها والتأكد من عدم إغفال عنصر من العناصر أو ارتكاب خطأ في حل من الحلول. (ينظر: ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، بالخصوص القسم الثاني، ص 75 – 76). وهكذا يتم بناء صرح المعرفة على منهج دقيق (الحدس والاستنباط) وعلى أرض صلبة (الوضوح والبداهة). فالحقائق الحدسية الفطرية واحدة لدى جميع البشر، لكن هذا لا يعني أن استخدام هذه الحقائق لبناء المعرفة واستنتاج حقائق مركبة انطلاقا منها متاح للجميع، بل الأمر يرتبط بالتدريب والتمرن على استعمال العقل قصد إبداع معارف جديدة وحقائق مركبة بالاعتماد على منهج عقلي محكم. لأن المعرفة ليست معطى مباشرا، ولا هبة تعطى، بل لا بد من البحث عنها بالشك في كل ما نمتلكه من الأفكار المسبقة والآراء الخاصة قصد تمييز الصحيح عن الخاطئ منها. فالباحث عن الحقيقة شأنه شأن الرجل الذي يسير في الظلام(الجهل) عليه أن يحسب خطواته أن يتجنب السقوط (الأخطاء) وأن يعتمد خطة عقلية (المنهج) للخروج إلى النور (المعرفة الحقة). (ينظر: ديكارت، مقال عن المنهج، مرجع سابق، ص 70).

1– الصفحة البيضاء (tabula rasa) مصطلح يعود في جذوره إلى الفلسفة الأفلاطونية، حيث نجد أفلاطون في محاورة 'تياتيتوس' (Theaetetus) – المخصصة للبحث في المعرفة وطرق بنائها – يستعمل مصطلح 'ألواح الشمع' (block of wax) وبالفرنسية (tablettes de cire) التي تستعمل للكتابة والرسم، ولقد استعار أفلاطون هذا المصطلح للكناية على دور الذاكرة في تعلم المعارف الجديدة وتوسيع قدرة الاكتساب لدى الفرد، وكذا إصدار الأحكام الجيدة والصحيحة على مواضيع المعرفة، فكلما كانت الذاكرة قوية (واسعة ومترابطة الأحداث وتشكل وحدة) كلما اتسعت قدرات التعلم لدى الإنسان وكانت معارفه صلبة ويقينية: فالذاكرة الجيدة مثلها مثل الألواح الكبيرة المصنوعة من الشمع الخالص والمسكوكة بإتقان، حيث تحفظ كل ما يكتب أو يرسم عليها ضد تقلبات الزمان، لإنها خزان وسجل يحفظ كل ما عاشه الإنسان من إحساسات وتفكير. إذ يقول أفلاطون على لسان سقراط: "هب [...] أن هناك في نفوسنا ألواحا من الشمع بأشكال مختلفة، كبيرة بالنسبة لأحد الأشخاص وصغيرة بالنسبة للآخر، إحداها من الشمع الخالص وأخرى من الشمع الفاسد، إحداها صلبة بالنسبة للبعض وأخرى مرنة للبعض الآخر، بينما بعضها الآخر متناسق". (ينظر: Plato. Theaetetus, in Complete works of Plato, Edited, with Introduction and Notes, by John M. Cooper, Associate Editor, D. S. Hutchinson, Hackett Publishing Company Indianapolis/Cambridge, 1997, 191d). والهدف من هذه الاستعارة هو بيان أن أحكام الناس وقدراتهم على التعلم تتفاوت حسب طبيعة ذاكراتهم.

العلامات، لا توجد فيه أية فكرة على الإطلاق. كيف يتلقى الأفكار إذن؟ وبأي وسيلة اكتسب الإنسان تلك الكمية المذهلة من الخيال اللامحدود؟ ومن أين يستخلص كل هذه المواد التي هي أساس كل استدلالاته ومعرفته؟ سأجيب على هذا باختصار: من التجربة"[1]. بمعنى أن الذهن البشري يدخل في التفاعل مع التجربة والخبرات الحسية وهو غير محمل بأي أفكار مسبقة أو فطرية، وأن كل ما في هذا الذهن من تصورات وأفكار مصدره التجربة والخبرة الحسية. غير أن هذا لا يعني أن الذهن مجرد مستقبل يتلقى فقط الأحاسيس والانطباعات، بل يتدخل بفاعليته التنظيمية والتركيبية حيث يربط بين المعطيات التي يتلقاها ويكون عنها أفكارا لم تكن حاضرة في التجربة، فالأفكار من قبيل: الفئة، النوع، التناقض، التشابه، والاختلاف وغيرها، ليست معطيات تجريبية حسية بل هي نتاج قدرات فكرية(ذهنية) يفرضها الذهن على شتات التجارب. وهكذا فالمعرفة هي نتاج تفاعل الذهن مع المعطيات الحسية التجريبية، حيث بمقدوره أن يكون أفكارا ومعاني، وأن يربطها بكلمات وجمل، دون الاستعانة بأي حدوس فطرية أو بداهات قبلية وبالاعتماد على التجربة ومعطياتها الحسية وحدها.

إذا كان الواقع لا يوجد بالنسبة للذات – حسب لوك – إلا انطلاقا مما تستطيع الحواس أن تنتجه عنه من انطباعات وإدراكات، فإن تعامل الذات مع الواقع – إذن – لا يتم إلا من خلال التصورات والأفكار المكونة عنه، ووسيلة الذات للتعبير عن التصورات والأفكار التي كوّنتها الفاعلية الذهنية عن ظواهر العالم وأشيائه هي الكلمات والجمل، إذ يقول لوك: "إن الكلمات تستعمل كعلامات حسية على الأفكار، والأفكار التي تعينها الكلمات، هي ما تدل عليه بشكل صحيح

1- John Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain (1735), Traduction par Pierre Coste, À Amsterdam Chez Pierre Mortier, M. DCC. XXXV. (3ème édition), Livre 2, Chapitre I, (§.2).

وفوري"[1]. بمعنى أن الكلمات تدل على أفكار المتكلم بشكل مباشر، فالأسماء لا تستخدم فقط للتعبير عن أفكارنا، وإنما تستخدم كذلك لتمثيل الأشياء في نهاية المطاف لتقوم مقامها. وهكذا فإن الكلمات تفصح عن الأفكار والتصورات، والتي بدورها تعبر عن الأشياء وتمثلها على مستوى الذهن. ومنه فإن الأطروحة المركزية في النظرية الدلالية التي يدافع عنها لوك تتأسس على ثلاث مكونات:

إن التصورات هي الواسطة بين الكلمات والأشياء، بمعنى أن الكلمات علامات لها دلالات فورية معقولة تشير إلى الأفكار التي تستخدم من أجلها، وتدل على التصورات بشكل فوري ومباشر، أما علاقتها بالأشياء فهي غير مباشرة لا تتم إلا من خلال وساطة التصورات التي كونها المتكلم عن الأشياء التي تفاعل معها حسيا وتجريبيا. فهي تساعد الذاكرة على الاشتغال أو تفصح عن الأفكار الخاصة للمتكلم وتضعها أمام أنظار الآخرين[2]: عندما يتحدث أحدهم إلى الآخرين، فهو يستعمل الكلمات كعلامات ورموز مشبعة بالأفكار الخاصة به، والتي تثير بدورها ذاكرة المستمع للبحث عن الأفكار التي تناسب الملفوظات المسموعة. وبهذا المعنى يصبح التواصل ممكنا. غير أن الكلمات التي يحوزها المتكلم أو المستمع هي ترجمة للأفكار التي كوناها عن الانطباعات الحسية والتي اختبراها من خلال تفاعلهما مع المحيط الطبيعي والاجتماعي. فلا وجود لأفكار خارج

1- John Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain, op. cit., Livre 3, Chapitre II: De la signification des Mots. (Les deux derrières phrases du §.1).

2- ibid., (§.2).

إطار التجربة. إننا نملك أسماء عامة عن الألوان (أحمر، أبيض، أسود...)، لكن هذه الكلمات هي تعبير صوتي عن الأفكار العامة التي أنتجها الذهن من خلال تجريد الإدراكات الحسية التي أعطيت له من خلال النشاط الحسي (البصري) الممارس على الأشياء ذات الألوان المتشابهة. يقول لوك، معبرا عن نشاط الذهن وهو يتفاعل مع الإدراكات الحسية، "يقوم العقل بثلاث عمليات: أولا، يختار عددا معينا من الأفكار؛ ثانيا، يضع علاقة معينة بينها، ويوحدها في فكرة واحدة؛ وفي الأخير يربطها معا باسم واحد. إذا درسنا كيف يتصرف العقل، وما هي الحرية التي يتخذها في ذلك، فسوف نرى دون صعوبة كيف أن جوهر أنواع الكائنات المتنوعة هو عمل من أعمال العقل. وذلك لأن الأنواع نفسها هي من اختراع البشر"[1].

يبين لوك أن كل لفظ يجب أن يكون مقرونا بدلالة، والألفاظ الخالية من الدلالات لا معنى لها، غير أن الألفاظ لا بد لها وأن تشير إلى معان وليس إلى أشياء مادية أو مواضيع في العالم الخارجي، وهذا يعني أن التعامل الدلالي يجب أن يقترن بالأفكار التي كونها الذهن عن الأشياء. وبالتالي فإن أي عبارة لغوية يقابلها تصور عقلي، أي أن التعبير اللغوي يدل على مجموعة من الأفكار في ذهن المتكلم. لكن، هل يمكن أن نغامر ونقول إن كل الكلمات لها ما يقابلها من الأفكار وكأننا أمام تواصل حد بحد؟

يبين لوك في الكتاب الثالث من مؤلفه 'مقالة في الفهم البشري'، أن جل الكلمات تدل على التصورات العامة، بينما بعضها يشير إلى العمليات الذهنية التي تربط التصورات فيما بينها للحصول على الأفكار المركبة، إذ "من المستحيل أن يكون لأي شيء معين اسم خاص ومتميز. لأن معنى الكلمات واستعمالها يتأسس على العلاقة التي يربط من خلالها الذهن بين أفكاره والأصوات التي يستخدمها لتكون علامات عليها، فمن الضروري إلصاق الأسماء بالأشياء للتعبير عن الأفكار

1- Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain, op. cit., Livre 3, Chapitre V : Des Noms des Modes Mixtes, & des Relations. (§.4)

المتميزة التي كونها الذهن عنها، ويحتفظ أيضا بالاسم الخاص الذي ينتمي إلى كل منها مع التكييف الخاص الذي تم إجراؤه على هذه الفكرة"[1]. إذ ليس من المعقول – حسب لوك – أن نسمي كل أفراد نوع من الطيور باسم خاص، أو يطلق مربي الماشية ألقابا خاصة على كل نعجة من قطيعه[2]، إننا نستعمل لفظ 'طائر' ليدل على كل الأنواع الطبيعية التي تشبهه، و'النعجة' على كل أفراد القطيع، لكن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن نطلق ألقابا خاصة على أفراد أنواع الحيوانات، فغالبا ما يسمي أفراد الأسرة الكلب أو القط أو أي حيوان آخر له حضور ما في حياتهم باسم خاص، فيتحدثون عليه باستعمال لقبه عوض استعمال الاسم العام للفئة التي ينتمي إليها.

إن معظم كلمات لغتنا تسمي الأشياء وتعبر عن التصورات العامة وبعضها الآخر يسمى أفراد عينيين بأسماء خاصة (أسماء الأعلام)، بينما بعض الكلمات تعكس العلاقات التي تجمع التصورات فيما بينها. إن الكلمات من قبيل 'و'، 'لكن'، 'إذا'، 'أو'، 'على' وغيرها كثير لا يقابلها أي تصور مباشر، بل يتحدد معناها من خلال العلاقات المتعددة التي يفرضها الذهن على التصورات المختلفة، وهذه الحدود تسمى في لغة المنطق العوامل والروابط، وهي كثيرة لا تدل على تصورات مباشرة، بقدر ما تترجم الترابطات التي يقيمها الذهن بين التصورات ليشكل منها أفكارا مركبة، وهكذا فإن "استعمال اللغة يكمن في وضع أصوات قصيرة كعلامات – وبطريقة بسيطة وسريعة – على تصورات عامة، والتي لا تعكس فقط الأشياء الخاصة، ولكن أيضا مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأفكار المستقلة، مجمعة في فكرة واحدة مركبة"[3]. فالناطق بالجملة التالية: 'الكتاب على المكتب'.

1- Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain, op. cit., livre3, Chapitre III : Des Termes généraux. (§. 2).

2- Ibid.

3- Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain, op. cit., Livre 3, Chapitre V : Des Noms des Modes Mixtes, & des Relations. (§.7)

يقابل لفظ 'الكتاب' التصور الذي يملكه الذهن من خلال اشتغاله على الانطباعات الحسية والتجارب الإدراكية التي كونها عن الكتب المتعددة في الواقع، ونفس الأمر ينطبق عن 'المكتب'، بينما اللفظ 'على' لا يقابله تصور مباشر بل هو تعبير عن العلاقة (المكانية) التي ربط من خلالها الذهن التصورين السابقين 'الكتاب' و'المكتب'، ومن هذا الربط استطعنا أن نفهم الفكرة المركبة التي كونها الذهن عن شيئين مختلفين. وهكذا فنحن في حاجة إلى أسماء تعبر عن تصورات وتشير إلى أشياء، وفي نفس الوقت نحتاج كلمات لها طبيعة مغايرة تبين العلاقات المتعددة التي يستطيع الذهن أن يقيمها بين التصورات التي يكونها عن وقائع والأشياء التي تفاعل معها، إذ تسمح الروابط والعوامل المنطقية (حروف المعاني) بتبيان وكشف الترابطات الضرورية التي تجمع بين التصورات الذهنية. لكن إلى أي حد يمكن القول إن كل الأفكار قابلة أن يعبر عنها لغويا؟ وإلى أي حد يمكن القول إن الأفكار تتطابق مع معطيات العالم الخارجي؟ وما الضامن أن إحساسا ما – الأحمر مثلا – يبقى هو نفسه في أزمنة وأمكنة مختلفة؟

إن اللغة – حسب لوك – لا تعبر فقط عن التصورات العامة فقط، بل تعكس الفكر والتخيلات التي يبدعها الذهن البشري. أي أن اللغة هي التي تكشف وعي الذات بذاتها وبالعالم من حولها، حيث تستطيع في كل لحظة أن تحيل إلى نفسها باستعمال ضمير المتكلم 'أنا' رغم تغير الزمان والمكان والظروف. فالذات تبقى في وحدة مع نفسها، والضامن لهذه الوحدة ليس الجسد، لأن الجسد يتغير، وليس صورة الجسد لأنها بدورها تتغير بتغير الجسد، بل إن ما يضمن استمرارية 'الأنا' في جوهر واحد أو جواهر متغيرة هي قدرتها على التأمل والتعقل والرجوع إلى الذات باستمرار[1]. إن الشخص كائن مفكر ويعرف أنه يفكر، ف"عندما نعرف أننا نسمع أو نشم أو

1- Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain, op. cit., Livre 2 Chapitre XXVII : Ce que c'est qu'Identité & Diversité. (§.9).

نريد، أو نتخيل فنحن نعرف ذلك عند حدوثه لنا"[1]. وهكذا فإن التجارب الحسية التي عاشتها الذات مع الأشياء تترجم إلى تصورات وأفكار تخزن في الذاكرة حيث يتم استدعاؤها كلما كان الذهن في حاجة إليها. ومنه فالتصورات التي كونتها الفاعلية الذهنية عن اللون الأحمر – مثلا – تبقى هي نفسها كلما اختبرت الذات الأشياء الحمراء من جديد. يقول لوك "إن الذات الحالية هي الذات التي كانت حينئذ، وهذا الفعل هو نفسه الذي أنجز من طرف نفس الذات في الماضي، والذي تستحضره الذاكرة في الحاضر"[2]. وهكذا يتضح مع لوك أن الأسماء العامة تختزل المجهود الفكري وتسمح للذات أن تربط الأشياء بالأفكار التي تختزنها الذاكرة عن الأشياء الشبيهة لها. فنحن لسنا في حاجة إلى اختبار الأشياء كلما صادفناها، بل نوظف التصورات والأفكار التي تضج بها ذاكرتنا، فنختصر المسافات ونراكم التجارب ونربط الماضي بالحاضر والشيء بشبيهه.

نخلص مع لوك إلى أن اللغة – باعتبارها كلمات، من جهة، وجمل تربط الكلمات فيما بينها بحروف وعوامل منطقية، من جهة أخرى – تدل وتعبر بشكل مباشر عن الأفكار التي كونتها الفاعلية الذهنية عن الأشياء وظواهر الطبيعة وتجارب الحياة اليومية، أي أن اللغة تجسيد صوتي ورمزي للتصورات والتمثلات الذهنية وتعبير عن العلاقات والترابطات الممكنة بينها، وهي تجريد وتعميم لخصائص الأشياء وعلاقاتها في الواقع التجريبي.

هيوم والعلاقة السببية بين الكلمات والتصورات. يتفق هيوم مع لوك في كون أن الكلمات هي علامات الأفكار، لأن "كل الأفكار المجردة كانت في الواقع أفكار فردية يوما ما. ولكن، تم إلحاقها بحدود عامة، فهي قادرة على تمثيل تنوع كبير، وفهم الأشياء التي تتشابه مع بعضها في نقاط

1- Ibid.

2- Ibid.

معينة، وتختلف في أخرى"[1]. كما أن التواصل بين المتخاطبين لا يمكن أن يكون ممكنا إلا باستعمال الكلمات وبنفس المعنى للتعبير عن الأفكار والتصورات التي كوناها عن العالم التجريبي. لكن هل يمكن القول مع هيوم أن الكلمة تربطها علاقة مباشرة بالفكرة؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن القول إن علاقة الكلمة بالفكرة هي علاقة سبب بنتيجة؟

يذهب هيوم في كتابه 'مقالة في الطبيعة البشرية' إلى اعتبار أن الأفكار لا تخرج عن ثلاثة أنماط من الترابطات الممكنة، وهي: التشابه، الترابط بالتجاور[2] (أو التماس في الزمان والمكان) والترابط السببي، إذ يقول: "لقد قمت بتقليص مبادئ الاتحاد بين الأفكار إلى ثلاثة مبادئ عامة، وقد أكدت أن الفكرة أو الانطباع عن شيء يقدم بشكل طبيعي فكرة شيء آخر مشابه له، متجاور معه، أو مرتبط به. أعترف، إن هذه المبادئ، ليست أسبابا غير معصومة من الخطأ، ولا الوحيدة للربط بين الأفكار"[3].

فالتشابه – حسب هيوم – لا يمكن أن يفسر كيفية ارتباط الكلمات بالأفكار، لأن الأصوات أو العلامات الاصطلاحية التي ننتجها لا تشبه ما نعنيه في شيء. كما أن ذلك التلاحم بين الفكرة والكلمة الذي حدث في زمان ومكان لم يعد قائما في اللحظة التي نستعمل فيها الكلمة للدلالة على الفكرة، لأن الأفكار تغيرت عبر أزمنة وأمكنة مختلفة، فقد يحصل لدينا إحساس بأن الأشياء تبقى هي هي دون تغيير عبر الزمن، ولا نتفطن إلى أن ما يوجد في الحقيقة ليس نفس الشيء بل سلسلة من الأشياء المتعاقبة؛ وأن إدراكنا للأشياء قد تغير كلية، وأن ما كنا نعتقده بصدد شيء ما

1- David Hume, Traité de la nature humaine, Livre I: De l'entendement(1739), traduit de l'anglais par Philippe Folliot, 3 janvier 2006, (Édition numérique réalisée le 28 janvier 2005 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, province de Québec, Canada. Texte revu et corrigé le 11 décembre 2009), p. 45.

2- La contiguïté.

3- Hume, Traité de la nature humaine, op. cit., p. 100.

لم يعد هو نفس المعتقد في اللحظة الحاضرة عن نفس الشيء. فلا شيء يضمن بقاء نفس الأفكار والمعتقدات، لأن الذات التي كانت قد اختبرت الأشياء في السابق لم تعد هي الذات الحالية التي تستعمل نفس الكلمة السابقة للتعبير عن الخبرة الذهنية الحالية. يقول هيوم بهذا الصدد: "لا وجود لانطباع ثابت لا يتغير: الألم واللذة، الحزن والفرح، انفعالات وإحساسات يتبع بعضها البعض، ولا توجد مجتمعة في نفس الوقت، وهذا لا يسمح باشتقاق فكرة وجود 'أنا' انطلاقا من هذه الانطباعات، بل لا وجود لفكرة 'الأنا' الواحدة والثابتة"[1].

ينتقد هيوم بشدة الكوجيطو الديكارتي، كما ينتقد كذلك ثبات الهوية الشخصية كما تصورها لوك؛ مبينا أن فكرة الهوية الشخصية الثابتة والواحدة التي تضمن للذات استمراريتها في الزمان والمكان هي مجرد وهم لا يصمد أمام التأمل الباطني في حقيقة الحدوس والانطباعات الحسية التي نملكها عن الأشياء، فالإحساس – مثلا – بالألم أو اللذة، والفرح أو الحزن، هي تجارب عابرة لا تستقر على حال، ولما كانت الانطباعات والإحساسات متغيرة ومتعاقبة وتختلف باختلاف التجارب والأشخاص والمواقف، فإنه لا يمكن أن تشكل أساسا لقيام الهوية الشخصية الثابتة. ويبين في نفس السياق أن ما تدركه الذات عندما تستبطن سيلان إدراكاتها وانطباعاتها أن هناك إدراكات مختلفة بعضها عن بعض، وقابلة للتمييز بينها، وفصل بعضها عن بعض. بحيث يمكن فحص كل واحد على حدة، كما يمكن لكل انطباع أن يوجد منفصلا عن غيره، ولا يحتاج لغيره كدعامة لوجوده[2].

يتبين مع هيوم أن الأفكار التي تملكها الذات عن الأشياء لا تستقر على حال ومنه فإن الكلمات والتسميات حول الخبرات والانطباعات بدورها ليست ثابتة بل تتغير بتغير الأفكار والانطباعات. فما تعنيه الكلمات يتغير حسب تغير الانطباعات والأحاسيس. ومنه فإن الكلمة

1- Hume, Traité de la nature humaine, op. cit., p. 242.

2- Ibid.

ترتبط بالفكرة في اللحظة التي نتكلم فيها وكأننا أمام علاقة سبب بنتيجة. أي أن الأفكار هي معاني(أسباب) لكلمات(نتائج). فإذا قلنا مثلا إن 'س' تعني 'ع'، فإن العقول كلها أو على الأقل بعضها تعتبر أن أحدهما يؤدي – بشكل طبيعي – إلى الآخر، بمعنى أوضح أن أحدهما سابق والآخر لاحق. ومنه فالمعنى ليس كيانات ثابتة في الذهن ولا هوية ثابتة له، بل يتطور باستمرار حسب التجارب والخبرات المعيشة. يقول هيوم: "من جهتي، عندما أتوغل في الأعماق الحميمية لما أسميه إنيتي، لا أعثر فيها سوى على بعض الإدراكات الخاصة [...] كالحرارة والبرودة، والنور والظل، والحب والكراهية، والألم واللذة؛ ولا يمكنني الإمساك بذاتي في أية لحظة بدون إدراك، كما لا يمكنني أبدا ملاحظة شيء آخر غير الإدراك"[1]. إن الفكر إذن لا يستقر على حال بل يتغير أكثر كما تتغير حياتنا وأحاسيسنا وملكاتنا، فالفكر هو عبارة عن مسرح تظهر على سطحه سلسلة من الإدراكات المتعاقبة بلا انقطاع حسب المواقف والسياقات[2].

إن الترابط السببي بين اللفظ والانطباع ليس مبدأ منطقيا سابقا على الشروط التجريبية التي أنتجت الانطباع. فالأمر يتعلق بترابط بعدي بين ما نفكر فيه وما نتحدث عنه. إذ من "الواضح أن السبب والنتيجة هي علاقات كوناها عن طريق التجربة، وليس عن طريق استدلال عقلي مجرد أو علاقة مجردة. لا توجد ظاهرة واحدة، حتى أبسطها، يمكننا تفسيرها من خلال خصائص الأشياء كما تبدو لنا، أو التي يمكننا التنبؤ بها دون مساعدة ذاكرتنا وتجربتنا"[3]. وعليه فإن الكلمات إما أعراض أو إشارات للأفكار في ذهن المتكلم؛ وإما سبب لإثارة انطباعات وإدراكات المستمع. وفي كلتا الحالتين فإن الكلمات هي تسميات للانطباعات الحسية والأفكار الناتجة عن النشاط الحسي

1- Ibid.

2- Hume, Traité de la nature humaine, op. cit., p. 242-243.

3- Ibid., p. 78.

التجريبي للذهن، بمعنى أن اللغة هي تعبير عن المعرفة التي تتوصل إليها الذات من خلال تفاعلها مع الواقع التجريبي.

يقدم هيوم نقدا حادا للفلاسفة العقلانيين الذين يعتبرون أن السببية هي مبدأ عقلي سابق على الشروط التجريبية، ويذهب عكس ذلك، مبينا أن السببية هي أحد الشروط التجريبية التي تسمح بترابط الأفكار فيما بينها وبين الكلمات المعبرة عنها. فإذا كان العقلانيون فكروا في العلاقة السببية من زاوية الاستنباط، فإن هيوم رفض رفضا قاطعا هذه الأطروحة وأكد في مقابل ذلك على الطابع الاستقرائي للترابط السببي، فهو ناتج عن التكرار والعادة. فلا شيء في العقل يضمن أن الدخان ناتج عن وجود النار انطلاقا من فكرة تربط السبب(النار) بالنتيجة(الدخان) دون أن تختبر الذات الأمر لمرات عدة. كما أنه لا شيء يضمن أن المطر يسقط بسبب تكاثف السحب في الجو، دون أن نعاين حسيا لمرات عدة تكرار تزامن الحدثين، فالترابط السببي ليس واقعا موضوعيا ولا معطى فيزيائيا في الأشياء ولا مبدأ منطقيا للفكر، بل هو فاعلية ذهنية في الذات نتيجة توفر عوامل نفسية تربط الألفاظ بالأفكار، والأفكار بالانطباعات، والانطباعات بالأشياء. فهي سلسلة من الأحداث المتعاقبة النابعة من التجربة عن طريق التكرار والمعاودة. يقول هيوم: "كل ما ينجم عن التكرار دون أي استدلال أو استنتاج، يمكننا من أن نثبت حقيقة صلبة وهي أن الاعتقاد الذي يأتي من الانطباع الحالي ينتج من هذا المبدأ. فعندما كنا معتادين على رؤية انطباعين انضما إلى بعضهما البعض، فإن ظهور أحدهما يؤدي على الفور إلى ظهور الآخر"[1]. وعليه فإن ارتباط الأشياء ارتباطا وثيقا – كالحرارة والنار مثلا، أو البرودة والثلج – ناتج عن التكرار والعادة. فالعادة هي التي ترشد وتوجه العقل البشري وتسمح له بالربط بين الأحداث والوقائع فتتعاقب أو تتزامن أو تتشابه أو تتعارض، وهي التي تمكننا من التوقع في المستقبل سلسلة من الوقائع الشبيهة بالوقائع التي جربناها في الماضي.

1- Hume, Traité de la nature humaine, op. cit., p. 110.

إن الكلمات حسب هيوم هي تسميات لأشياء التي تفاعل معها المتكلم، وهي بدورها نتاج عملية تكرار وترابط بعدي بين الانطباع والشيء في الواقع، وعليه فكلمة 'شجرة' لا تشير إلا إلى واحدة من أفراد الأشجار التي اختبرها الذهن، وتفاعل معها مكونا فكرة عنها انطلاقا من الانطباع الذي أعطي عنها بواسطة الحواس، ومن خلال عملية التشابه استطاع الذهن أن يلصق تسمية 'الشجرة' عن الأفكار المتشابهة عن الأشجار سواء التي تم اختبارها أو التي يتخيل وجودها. ومن هنا تصبح كلمة 'شجرة' تسمية لسائر الأشجار. وعليه فإن الاسم العام هو تعبير عن فكرة ناتجة عن إدراك حسي حول فرد بعينه ثم اختير ليمثل باقي الأفراد التي تنتمي إلى نفس الفئة. أي أن الذهن يستطيع أن يعمم تصورا خاصا على باقي الأشياء لكن ليس بالمعنى القبلي أو الفطري، بل إن التعميم والتجريد عمليات ذهنية تنطلق من المادة الحسية التي تعطى للذهن ليكون منها تصورات عامة وأفكار، وهذه الأخيرة لا وجود لها إلا من خلال الكلمات والعلامات التي تعبر عنها. بمعنى أن الكلمات هي عبارة عن تسميات اصطلاحية متفق عليها تطلق على أفكار تقابلها. فالأشياء تمثل أمام الذهن فرادى، ومهمة الذهن هو تكوين انطباعات وتصورات حول الأشياء في فرديتها وليس في كليتها. فكلمة 'إنسان' مثلا هي تسمية وبطاقة تلصق ب'زيد' الذي عرفته وتفاعلت معه، وليست تعميما لجميع أفراد النوع الإنساني الموجودين أو الذين كانوا ولم يعودوا أو الذين سيكونون في المستقبل. وتجدر الإشارة إلى أن عملية التسمية نشاط لغوي ضروري بفضله يستطيع المتكلم أن يقبض على الأشياء ويختزلها في ألفاظ وعبارات تعوض غياب الأشياء الحقيقية، فاللغة هي تكثيف للعالم في أصوات ورموز تحمل دلالات ومعاني، تجعل الأشياء حاضرة رغم غيابها الفيزيائي. غير أنه لا يجب الخلط بين عملية التسمية والنزعة الاسمية[1]، فالأولى نشاط ذهني وفعالية فكرية واعية يتم من خلالها إلصاق أسماء على مواضيع، بينما الثانية مذهب فلسفي يعتبر أن الأفكار العامة المجردة والتصورات الذهنية لا وجود لها. إذ اختلف الفلاسفة الاسميون في تصوراتهم حول مشكلة الكليات

1- The nominalism.

(الأفكار العامة) ومشكلة الكيانات (المواضيع) المجردة، ولذلك يمكن التمييز بين نزعتين اسميتين: إحداهما، تنفي وجود الكليات، أي لا تعترف إلا بالأجزاء، وهي بذلك تعادي النزعة الواقعية؛ والثانية تنفي وجود الكيانات المجردة كالأعداد والعلاقات والعوالم الممكنة وغيرها، أي أنها تسير في طريق مغاير للنزعة الأفلاطونية التي تمنح للكيانات المجردة وجودا موضوعيا مستقلا عن العالم المحسوس الفزيائي. وهي بذلك تتعارض مع المثالية[1]. هكذا يمكن القول إن هيوم من الاسميين الذين دافعوا بشدة عن أطروحة ارتباط الأفكار بمسمياتها ارتباط السبب بالنتيجة رافضا وجود أفكار فطرية سابقة عن التجربة الحسية، من جهة، ورافضا وجود تصورات عامة تبقى ثابتة رغم تغير الانطباعات والتجارب الحسية، من جهة أخرى.

انطلاقا مما سبق يتبين – مع هيوم – أن الأشياء سبب لتكون الانطباعات الحسية التي تشكل بدورها سببا لتشكل الأفكار والتي تعبر عنها الكلمات، وهذه الأخيرة بدورها تثير الأفكار وتسبب المعاني لكن ليس بنوع من التواطؤ القبلي، بل من خلال الترابط بين الكلمة والانطباع والفكرة بشكل بعدي، فنحن أمام سلسلة من الأحداث المترابطة والمتعاقبة يسبق بعضها بعضا، وبحكم التكرار والعادة تصبح إحداها سببا لحدوث الأخرى، بل أكثر من ذلك تتبادل الكلمات والأفكار والانطباعات الأدوار فتصبح أحيانا أسبابا وأحيان أخرى نتائج. إذ أن هناك نوع من الدينامية تجعل الكلمات غير مستقرة على معنى ثابت، وذلك ناتج عن الفاعلية الذهنية للمتكلم الذي يسمي انطباعاته وإدراكاته حسب السياق والمقام الذين ينتجان شروط تماس الكلام بالأفكار. ومن هذا

1- Rodriguez-Pereyra Gonzalo, "Nominalism in Metaphysics", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Summer 2019 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <https://plato.stanford.edu/archives/sum2019/entries/nominalism-metaphysics/>., First published: Mon. Feb. 11, 2008; substantive revision: Wed. Apr .1, 2015. (Accessed: Oct. 20, 2019).

المنطلق يكون هيوم قد قدم نقدا مزدوجا لكل من لوك – الذي اعتبر أن التصورات لها هوية ثابتة ومسميات (كلمات) دالة عليها مخزنة في الذاكرة يتم استدعاؤها كلما كنا في حاجة إليها – والعقلانيين الذين يذهبون إلى اعتبار اللغة هي وسيلة للتعبير وإخراج الفكر السابق عليها.

جون ستيوارت مل والتفسير السببي للأسماء.

تستعمل أسماء الأعلام في اللغة استعمالات عدة فهي موضوع القضية المنطقية البسيطة، أو موضوع المحادثة أو الخطاب في اللغة الطبيعية، كما أنها مثيرات لفظية لتنبيه حاملها (المنادى) أو سامعها للقيام بأفعال أو الإعراض عنها، فعندما ينطق أحدهم باسم علم، من قبيل 'أحمد'، 'أم الربيع'، 'تطوان' وغيرها، فهو يعين موضوعا واقعيا موجود وجودا فعليا. بينما أسماء من قبيل 'العنقاء'، 'الغول' وغيرها تعين كائنات خيالية، يقول كارناب: "وكما هو معتاد، فعلاقة التسمية تحدث بين تعبير لغوي وكيان ملموس أو مجرد (موضوع)، وهذا التعبير عبارة عن اسم. هذه العلاقة إذن، في اصطلاحنا، علاقة دلالية. تستخدم تعبيرات مختلفة للتعبير عن هذه العلاقة، من قبيل: 'س هو اسم ش'؛ 'س يحيل على ش'؛ 'س يعين ش'، 'س يدل على ش'، 'س هو ش'، 'س تسمية ل ش'، وغيرها"[1]. لكن كيف يمكن للاسم (اللفظ) أن يقوم بهذه الوظيفة الإحالية أو التعيينية؟ كيف يمكن للاسم – باعتباره متوالية من الأصوات المركبة وفق قوانين التأليف الصوتي – أن يحيل على موضوع سواء كان موجودا وجودا ماديا ملموسا أو كان كيانا ذهنيا أو خياليا؟

يسير جون ستيوارت مل في نفس الطريق التي رسمها لوك وهيوم، معتبرا أن كل أفكارنا واعتقاداتنا تعود في أصولها إلى الانطباعات الحسية التي كونها عن العالم الخارجي. إذ بين في كتابه 'نسق المنطق' أن 'التسمية' هي عملية إلصاق الأسماء بالأشياء، قد تكون الأشياء موجودة ك'الثلج' أو خيالية ك'الغول'، كما يمكن أن تكون الأسماء ألقابا: 'الشمس'، 'القمر'، 'الشجرة'، 'أحمد'...الخ؛ أو

1- Rudolf Carnap, Meaning and necessity, a study in semantics and modal logic, the university of Chicago press, 1947, p. 97.

صفات: 'أحمر'، 'أصغر'، 'أطول'...الخ؛ أو مركبا اسميا: 'مؤلف كتاب 'ثروة الأمم"، 'المربع الدائري'، 'الذهب الأسود'...الخ. إذ تمكن المتكلم من ترجمة فاعليته الذهنية على الأشياء إلى أفكار وتصورات؛ "لأن اللغة وسيلة للتفكير، فضلا عن كونها أداة للتواصل، والتعريف والتصنيف"[1].

إن البحث عن معاني الأسماء ليس ترفا فكريا، بل هو ضرورة فكرية تسمح للذوات المفكرة فهم العلاقة الجدلية بين اللغة وما تحيل عليه في الواقع. إذ ينطوي البحث في معاني الأسماء سواء كانت عامة أو فردية على اعتبارات ثلاث:

- اعتبار منطقي: الأسماء تحتل مكانة الموضوع أو المحمول في القضايا المنطقية وتلعب دورا حاسما في تحديد قيمة صدقها؛
- اعتبار ابستيمولوجي: الأسماء ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعارف والنظريات العلمية وخصوصا أسماء الأنواع الطبيعية والعناصر الكيميائية والكيانات المجردة (الأعداد، الأشكال الهندسية، العلاقات الرياضية...)، والمقادير الفيزيائية (الحرارة، السرعة، الطاقة، القوة، الكتلة...) وغيرها؛
- اعتبار أنطولوجي/ميتافيزيقي: علاقة الأسماء بظواهر الواقع وأشيائه وكذا بالفكر.

يعتبر مل أن البحث في طبيعة الأسماء يمكننا من فهم منطق اللغة وكذا تحديد العلاقة الجدلية بين المعنى (الفكر) والإحالة (الواقع). ولهذا السبب منح الصدارة في كتابه 'نسق المنطق' للبحث في أنواع الأسماء على حساب آليات الاستدلال المختلفة. ويذهب في هذا الصدد إلى أن الأسماء ليست نوعا واحدا بل تنقسم إلى عدة تقسيمات أجملها في ستة، وهي:

1- John Stuart Mill, A System of Logic. Ratiocinative and Inductive, Being a connected view of the Principles of Evidence, and the Methods of Scientific Investigation, eBooks@Adelaide 2011, University of Adelaide, South Australia 5005, Introduction, (§. 7), p. 20.

- ✓ الأسماء العامة (الإنسان، الشجرة، المعدن...)، والأسماء الفردية (عمرو، زيد، أرسطو...)[1]؛
- ✓ أسماء مجردة (حرية، فضيلة، عقلانية...)، وأسماء ملموسة (كلب، قط، أفلاطون...)[2]؛
- ✓ أسماء دالة (كرسي، قمر، نجم..)، وأسماء غير دالة (الفارابي، توبقال، تطوان...)[3]؛
- ✓ أسماء إيجابية (شعور، معنى، خير، عدل، سعادة...)، وأسماء سلبية (لاشعور، لامعنى، لاوعي، لامحدود...)[4]؛
- ✓ أسماء نسبية (ابن، أب، طويل، ثقيل، عادل...)، وأسماء مطلقة – يفضل مل لا نسبية، نظرا للحمولة الميتافيزيقية لاسم المطلق – (...)[5]؛
- ✓ أسماء متواطئة[6] (لها معنى واحد) مثل (خروف، جدي، عجل...)، وأسماء متعددة المعاني[7] مثل (شجرة، أم، بيت...)[8].

إن الأسماء هي تسميات لأشياء واقعية أو خيالية، كما أن بعض الأشياء تختزل كلها في اسم واحد (جميع أشجار الزيتون — مثلا – تسمى باستعمال لفظ 'شجرة زيتون' دونما حاجة إلى تسمية كل شجرة على حدة باسم خاص). في حين أن الأشخاص يأخذ كل واحد منهم اسما خاصا به يميزه عن غيره (أحمد، أرسطو، روسو...)، وإن كانوا يشتركون في اسم عام 'إنسان'. ومنه فللحديث

1- Mill, A System of Logic. op. cit., Book I: Of names and propositions, Chapter 2: Of Names, (§. 3), p. 33 - 34.
2- Ibid, (§. 4), p. 35 - 36.
3- Ibid, (§. 5), pp. 37 - 45.
4- Ibid, (§. 6), p. 46.
5- Ibid, (§. 7), p. 47.
6- Univocal.
7- Æquivocal.
8- Ibid, (§. 7), p. 49 – 50.

عن شخص ما فنحن نستعمل اسمه الخاص به (أفلاطون مثلا) وليس الاسم العام المشترك، غير أنه للحديث عن 'شجرة زيتون' عينها فنحن نفتقر إلى الاسم الخاص بها بل نلجأ إلى استعمال أسماء الإشارة 'هذه الشجرة' فنشير إليها بالأصبع لنميزها عن غيرها، أو نستعمل أرقاما (1، 2، 3...) أو إضافة صفات (الكبيرة، الصغيرة، المسنة...إلخ). لذلك فنحن ملزمون بإضافة اسم آخر لتعين الشيء المراد الحديث عنه[1]. وعليه فإن "الهدف من استعمال الأسماء العامة هو الإحالة على الأشياء الفردية ... قصد الاقتصاد في استعمال اللغة. لكن من الواضح أن هذه الوظيفة ليست الوحيدة. إذ بفضل الأسماء نستطيع اقتراح قضايا عامة، وتأكيد أو نفي محمولات عدد لانهائي من الأشياء في آن واحد"[2].

إن التمييز، إذن، في الأسماء بين ما هو عام ومشترك – بين أشياء كثيرة – وأسماء فردية خاصة أمر جوهري، لأنه يمكن المتكلم من اختصار المجهود الذهني وإسناد خصائص وصفات مشتركة للأشياء المتشابهة، من جهة، وإفراد الأشياء والأشخاص بأسماء خاصة، من جهة أخرى: فحينما نتحدث عن موضوع عام فمن المعقول استعمال المحمولات والصفات المشتركة (الأسماء العامة) بين جميع أفراد الموضوع دون تخصيص وذلك بنوع من الاختصار والاقتصاد في اللغة، بينما حينما نتحدث عن فرد بعينه فنحن نسميه ونميزه عن غيره. إن الأسماء العامة بهذا المعنى تدل وتحيل في نفس الوقت، أي تصرح بمضمون فكري (معنى) وتشير إلى أشياء وكيانات، بينما الأسماء الفردية تحيل على الشيء بشكل مباشر دون وساطة المضمون الفكري، لذلك فهي أسماء لا تصرح بأي معنى بقدر ما تشير إلى حاملها سواء في حضوره أو غيابه. "عندما نلصق بالشيء اسما خاصا؛ وعندما نقول، مشيرين إلى رجل ما، هذا هو 'براون' أو 'سميث'، أو نشير إلى مدينة، بكونها 'يورك'،

1- Mill, A System of Logic, op. cit., p. 33.

2- Ibid, p. 33.

فنحن لا ننقل للمستمع أي معلومات عنها، بقدر ما هي أسمائها"[1]. بمعنى أن أسماء العلم تحيل على مواضيعها إحالة مباشرة صلبة لا وساطة فيها لخصائص الموضوع أو صفاته، والسلسلة السببية التواصلية هي التي تنقل الاسم من متكلم إلى آخر، انطلاقا من الشخص الأول الذي ألصق الاسم بالشيء أو الفرد إلى أن وصل إلى مسامعنا أو أعيننا، فنحن لا نعرف أفلاطون بشكل مباشر، لكن سمعنا لفظ 'أفلاطون' يوما ما من الآخرين، الذين سمعوه من سابقيهم إلى أن ينتهي الأمر إلى الحدث الأول (طقوس التسمية) التي منح فيها الأب الاسم الخاص بمولوده، ومن هنا نستطيع أن نحيل ونعين باسم 'أفلاطون' حامله وكأننا حضرنا طقوس التسمية. إذ رغم ضعف معرفتنا بصفاته، ورغم إسناد بعضنا لصفات خاطئة عنه، أو تفاوت معارفنا حوله، فالاسم يستعمل ليعين حامله في جميع السياقات. يقول مل: " أسماء الأعلام لا دلالة لها: فهي تعين الأفراد الحاملين لها؛ لكنها لا تشير ولا تستوجب أي خاصية تنتمي إلى هؤلاء الأفراد. عندما نسمي طفلا باسم 'بول' أو كلبا باسم 'قيصر'، فإن هذين الاسمين هما فقط علامتين تستخدمان للسماح لهذين الشخصين بأن يصبحا موضوعي الكلام. قد يقال، في الواقع، أنه يجب أن يكون لدينا سبب لمنحهم هذه الأسماء بدلا من الآخرين؛ وهذا صحيح؛ لكن بمجرد إلصاق الاسم بحامله، يصبح مستقلا عن تلك الأسباب"[2].

يميز مل في الأسماء "بين الدالة وغير الدالة"[3]: فالاسم الدال[4] هو ذلك الاسم العام الذي يعبر عن صفة أو خاصية مشتركة (أبيض، طويل، صلب وغيرها من الصفات)، أو فئة من الأشياء (شجرة، إنسان، جبل وغيرها من الأسماء العامة)، فهو دال لأنه يحيل على مرجع (موضوع)، ويعني

1- Ibid, p. 41.

2- Mill, A System of Logic, op. cit., p. 39.

3- Ibid, p. 37.

4- A connotative term.

لأنه يحمل مضمونا فكريا ويسند محمولات (صفات، خصائص، أوصاف) لموضوعه. أما الاسم غير الدال[1] فهو يشير إلى موضوع، أو كيان ذهني أو خيالي فقط.

إن أسماء الأعلام مثل 'أحمد'، 'ابن سينا'، 'سقراط'، 'الجزائر' تحيل على مواضيع فقط، ولا تحمل أية فكرة أو معنى. كما أن الألفاظ مثل: 'الحرية'، 'البياض'، 'الصلابة' وغيرها تحيل على صفات وكيانات ذهنية. في حين أن المحمولات مثل: 'أبيض'، 'صلب'، 'حر' تصرح بالمعنى وتشير إلى موضوع وتفرده بخاصية من الخصائص. لأن اللفظ 'أبيض' خاصية تسند لمواضيع عدة متميزة عن بعضها (الورقة، الثلج، الستار، السيارة...)، لكنها تشترك في صفة 'البياض' والتي لا تدل في حد ذاتها على أي موضوع. بل تحيل على فكرة ذهنية (مفهوم عقلي). يقول مل موضحا ذلك: "إن لفظ 'أبيض' لا يسند لصفة بل لموضوع، مثل الثلج وغيرها، ولكن عندما نجعل صفة 'البياض' موضوعا، فإننا ننقل المعنى الخاص بها ليحيل على الصفة ذاتها. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الألفاظ الأخرى... فلفظ 'فاضل'، على سبيل المثال، هو اسم فئة، والتي تشمل 'سقراط' 'هوارد'، 'زوج روس' وعدد لا يمكن تحديده من الأفراد الآخرين، في الماضي والحاضر وحتى في المستقبل. هؤلاء الأشخاص فرادى أو جماعة، يمكن أن يوصفوا بصفة 'الفضيلة'...لكن لا أحد منهم يمكن أن يكون هو الفضيلة نفسها"[2].

هذه الأطروحة شكلت أحد أبرز الحجج التي بنى عليها الفلاسفة ذوي النزوع الخارجي أمثال شاول كريبكي[3] وهيلاري بتنام[4] وآخرون نقدهم لنظرية المعنى الداخلية التي صاغها غوتلوب فريجه[5]

1- A non-connotative term.

2- Mill, A System of Logic, op. cit., p. 37.

3- Saul Kripke

4- Hilary Putnam

5- Gottlob Frege

ومن ذهب مذهبه. لأن السلوك اللغوي لألفاظ اللغة ليس واحدا، بل يختلف باختلاف طبيعتها، فالأسماء العامة والمشتركة لها معنى وفي نفس الوقت لها إحالة، لكن حينما تتحول تلك الأسماء في حد ذاتها إلى مواضيع أو حينما تصبح اسما خاصا لفرد عيني، أو مكان، أو كيان ذهني، أو خيالي، فإنها تفقد خاصية المعنى وتحتفظ فقط بإحالتها على موضوعها (مرجعها). عندما نسمي مولودا جديدا أو مكانا أو غيرها باسم ما فهناك أسباب معقولة لإلصاق ذلك الاسم بالتحديد بذلك المولود أو المكان دون غيره، لكن بمجرد ما تصبح التسمية متداولة تختفي الأسباب والاعتبارات العقلية التي كانت دافعا وراء تلك التسمية. لأن الاسم يحيل على الموضوع بشكل مباشر بينما معناه تم نسيانه، ولم يعد حاضرا بعد تتالي استعمال الاسم دون حاجة إلى معرفة معناه. فاسم العلم 'تطوان' – مثلا – يحيل بشكل مباشر على مكان جغرافي على خريطة المغرب، لكن مستعملي الاسم ليسوا بحاجة إلى منح المعنى للفظ أو حتى معرفة أن الاسم الأصلي للفظ هو 'تطاوين'، وهو جمع 'تيط'، وتعني 'العين التي تنبع منها المياه' في اللسان الأمازيغي، ومنه فكلمة 'تطاوين' (العيون) هو إحالة مباشرة على مكان جغرافي يعرف بتعدد منابع المياه المميزة للمنطقة، فالذي(ن) ألصق(وا) الاسم لأول مرة بهذا المكان يتميز(ون) عن المستعملين الآخرين الذين انتقل إليهم اللفظ، بكونه(م) يمنح(ون) للفظ 'تطاوين' الإحالة (مكان جغرافي) والمعنى (منابع المياه). وبعد انتقال استعمال اللفظ من الشخص الأول أو الأشخاص الأوائل الذين ألصقوا اسم 'تطاوين' بذلك المكان انقطعت العلاقة بين المسمى وما يعنيه، واحتفظ فقط بالإحالة المباشرة. أي الإحالة على المكان الجغرافي دون الحاجة إلى استحضار معناه، حيث أصبحت خاصية 'نبع الماء من المكان' غير ذات جدوى، ولسنا في حاجة إلى استحضارها كلما استعمل لفظ 'تطوان' في جملة ذات معنى. فعندما يقول أحدهم أنه 'زار مدينة تطوان'، فهو لا يصرح بكونه 'زار مدينة تعرف بتعدد منابع المياه'، بل إنه يستعمل اللفظ بطريقة تشير فقط إلى مكان سمي بهذا الاسم. بينما الفضوليون والخبراء في الطوبونيميا والتاريخ هم وحدهم من يستطيع استعمال 'اللفظ' ليحيل به ويعني به إن اقتضى الأمر ذلك.

تركيب.

يتبين من النقاش السابق أن اللغة هي أحد أعظم الخصائص التي يمتلكها الإنسان للتعبير عن فاعليته الذهنية وقدراته على تنظيم أشياء العالم، حيث يكون عنها أفكارا ومعاني وتصورات تجعلها حاضرة أمام الذهن رغم غيابها الفعلي، فنحن لسنا في حاجة إلى ممارسة النشاط الحسي على الأشياء في كل لحظات حياتنا بل نستطيع التفكير فيها انطلاقا من الأفكار والمعاني التي كوناها عنها في السابق اعتمادا على تفاعلنا الحسي التجريبي معها. إن كلمة 'شجرة' أو 'قط' أو غيرها كثير هي متواليات صوتية ورموز مكتوبة تم إلصاقها بأشياء وأصبحت هذه الكلمات كافية لإثارة الذهن لاستحضار الأفكار والانطباعات والمعاني التي نملكها عن تلك الأشياء دونما حاجة إلى رؤيتها من الجديد، فاللغة بهذا المعنى أسباب تستتبع أفكارا ومعاني (نتائج)، كما أن الأفكار والمعاني تستتبع كلمات أخرى وهكذا تتفاعل اللغة مع الفكر تفاعلا سببيا تتبادل فيه التأثير والتأثر. إن كل ما تملكه الذات من أفكار ومعاني هي نتاج عمليات التجريد والتعميم على الإحساسات والانطباعات المشكلة عن ظواهر العالم وأشيائه. ومنه فإن الأسماء العامة هي تعبير عن أفكار وتصورات مجردة تم انتزاعها من ظواهر متعددة بينما الأسماء الخاصة (الأعلام) فهي تسميات تشير مباشرة على حاملها دون وساطة الأفكار والتصورات فهي تعين موضوعا واحدا بشكل مباشر.

لائحة المراجع:

بالفرنسية والإنجليزية:

- Carnap, Rudolf. Meaning and necessity, a study in semantics and modal logic. the university of Chicago press, 1947.
- Gonzalo, Rodriguez-Pereyra. "Nominalism in Metaphysics." The Stanford Encyclopedia of Philosophy,

Edward N. Zalta (ed.). (Summer 2019 Edition), First published: Mon. Feb. 11, 2008; substantive revision: Wed. Apr .1, 2015. https://plato.stanford.edu/archives/sum2019/entries/nominalism-metaphysics/ (accessed Oct. 20, 2019).

- Hume, David. Traité de la nature humaine, Livre I: De l'entendement(1739), traduit de l'anglais par Philippe Folliot. (Édition numérique réalisée le 28 janvier 2005 à Chicoutimi, Ville de Saguenay, province de Québec, Canada. Texte revu et corrigé le 11 décembre 2009), 2006.

- Locke, John. Essai philosophique concernant l'entendement humain (1735), Traduction par Pierre Coste. À Amsterdam Chez Pierre Mortier, M. DCC. XXXV. (3ème édition), n.d.

- Plato. Complete works of Plato; edited, with Introduction and Notes, by John M. Cooper; Associate Editor, D. S. Hutchinson. Hackett Publishing Company Indianapolis/Cambridge, 1997.

بالعربية:

- روني ديكارت. مقال عن المنهج، ترجمة وتقديم: محمود محمد الخضيري. كلية الآداب جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، 1984.